الحرب بين أمريكا وإيران: صراع نفوذ أم إعادة رسم لخريطة العالم؟

ليس من الضروري أن تكون المواجهة بين أمريكا وإيران مجرد خلاف سياسي أو عسكري بين دولتين؛ فقراءة المشهد من زاوية أوسع تكشف أن هذا الصراع قد يكون جزءاً من استراتيجية أمريكية أشمل، هدفها الحفاظ على الهيمنة والنفوذ في منطقة الشرق الأوسط.

ومع ظهور قوى إقليمية ودولية تنافسها في هذه المنطقة الحيوية من العالم، تبرز أهمية الشرق الأوسط، فهو ليس مجرد مخزون للطاقة، بل عقدة استراتيجية تتحكم بجزء مهم من طرق التجارة العالمية والممرات البحرية وخطوط إمداد النفط والغاز.

ومن هنا تبرز أهمية مضيق هرمز، وباب المندب، وقناة السويس، فضلاً عن الموقع الجغرافي للمنطقة، الذي يجعل السيطرة على توازناتها عاملاً مؤثراً في الاقتصاد العالمي.

لكن القضية لا تتعلق بإيران وحدها، فهناك لاعب آخر يراقب المشهد عن كثب، وهو أوروبا. لقد شهدت العلاقات الأمريكية الأوروبية تباينات في الرؤى والمصالح، وظهرت داخل أوروبا أصوات تدعو إلى استقلال القرار السياسي والأمني الأوروبي، وتقليل الاعتماد على أمريكا. غير أن الحرب الروسية الأوكرانية أعادت المخاوف الأمنية إلى الواجهة، وجعلت أوروبا أكثر حاجة إلى مظلة أمريكا وحلف الناتو.

وفي ظل ارتفاع تكاليف الطاقة والمعيشة والضرائب، وتفاقم الضغوط الاقتصادية، تتزايد الاضطرابات المجتمعية والاحتجاجات في عدد من الدول الأوروبية. وهنا يمكن قراءة الأزمات الدولية باعتبارها عاملاً يضغط على خيارات أوروبا ويؤثر في توجهاتها السياسية والاقتصادية.

أما الصين، فهي الحاضر الغائب في هذه المعادلة؛ إذ تعتمد بدرجة كبيرة على استيراد الطاقة، وترتبط بعلاقات اقتصادية وتجارية مهمة مع إيران ودول المنطقة. وأي تصعيد طويل الأمد في الخليج، أو اضطرابات في الممرات البحرية، سيضع تجارتها وإمداداتها النفطية أمام تحديات حقيقية.

ومن هذا المنطلق، يمكن النظر إلى استمرار الأزمة بين أمريكا وإيران باعتباره عاملاً يؤثر في حركة الصين الاقتصادية والتجارية، ويحد من قدرتها على الاستفادة من استقرار المنطقة.

لكن يبقى السؤال مطروحاً: هل تريد واشنطن فعلاً إنهاء ملف إيران، أم أن بقاءه ضمن حدود التوتر المحسوب يخدم حساباتها الاستراتيجية؟

إن أمريكا تجد نفسها أمام معادلة معقدة؛ فهي تريد شرق أوسط لا يخرج عن نطاق نفوذها، وأوروبا لا تبتعد كثيراً عن مظلتها الأمنية، وصيناً لا تتمدد اقتصادياً ولا توسع نفوذها، كما تريد ألا تتحول إيران إلى قوة قادرة على تغيير موازين المنطقة بصورة مستقلة عن حساباتها.

وهكذا، قد لا تكون المواجهة مع إيران هي الغاية النهائية بحد ذاتها، بل إحدى أدوات إدارة صراع دولي أكبر على النفوذ والطاقة والتجارة والممرات الاستراتيجية.

إن أخطر ما في هذه المرحلة أن الحروب لا تُقاس دائماً بما تحققه في ميادين القتال، بل بما تعيد رسمه من خرائط سياسية واقتصادية، وبما تفرضه من تحالفات وتبعية وموازين قوى جديدة. ويبقى الخاسر الأكبر في هذه المعادلة شعوب المنطقة؛ فهم يسكنون في قلبها، وعلى أرضهم تمر طرق التجارة والطاقة، وفوق أرضهم تدور صراعات النفوذ.

والمؤلم أن حكام دول المنطقة جميعهم اختاروا الارتهان للقوى الخارجية، وقدّموا حسابات بقائهم ومصالحهم الضيقة على بناء مواقف مستقلة تحمي شعوبهم وثرواتهم.

إن الشعوب الإسلامية في هذه المنطقة هي التي تدفع ثمن الحرب من أمنها واقتصادها واستقرارها، وهي التي تتحمل كلفة الدمار والنزوح والفقر، بينما تتفاوض القوى الكبرى على مصالحها وتقاسم النفوذ. فإلى متى يبقى المسلمون وقوداً لصراعات الآخرين؟ وإلى متى تبقى ثرواتهم جسراً لنفوذ الدول الكبرى، وقراراتهم رهينة لحسابات خارجية؟

إن الخوف الحقيقي ليس في اختلاف القوى الكبرى، بل في غياب الوعي لدى شعوب هذه المنطقة. فلو كان لها كيان يحميها ويدافع عنها ويحفظ حقوقها، لما طمعت فيها الدول الكبرى. فالأمم التي لا تصنع قرارها بنفسها، يصنع الآخرون مستقبلها نيابة عنها.

إن العزة لا تُستجدى، والكرامة لا تُوهب، والأمم لا تستعيد مكانتها بالتمني.

لقد آن للأمة أن تنهض من سباتها، وأن تستعيد ثقتها بنفسها، وأن تدرك أن قوتها في اجتماعها، وعزها يكمن في تمسكها بقيمها، وكرامتها في عدلها. فالتاريخ لا ينتظر النائمين، والمجد لا يعود إلا لمن امتلك إرادة النهوض. وهذا الرائد الذي لا يكذب أهله يدعوكم إلى العمل معه من أجل عودة دولتكم التي فيها عزكم وكرامتكم.

نسأل الله أن يعيد لأمتنا عزها، وأن يجمعها على كلمة الحق والعدل، وما ذلك على الله بعزيز.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

مؤنس حميد – ولاية العراق